النيل

مصر هدية من النيل

(هيرودُت)

اسم النيل مأخوذ عن اليونان واصل الكلمة في لغتهم « نيلوس » ولعل اليونان اخذوها عن الفينقيين او الحثيين او عن القبائل التي كانت في لوبيا او في آسيا الصغرى . اما اسمه عند المصريين بصفته مقدساً فهو « جعبي » وإن اخرجوه عن الالوهية سموه « يومع » ومعناه اليم . او سموه النهر الكبير « أور » ويؤخذ من الرسوم القديمة انه كان يكنّى بابي الارباب ، ورب الغذاء ، ومخرج المأكولات بخصبه ، ومالئ القطرين بمحصولاته ، ومانح الحياة ، ومزيل المجاعة الخ . وحقاً ان النيل لكذلك

وهو يحدث في مصر ثلاث هيئات : الاولى زمن الفيضان ، فتصبح فيه مدن مصر جزائر وارضها انهاراً ولكن ذلك سيزول بمشروعات الريّ الجديدة . والثانية زمن الانحسار ، فتكون فيه كجنةٍ اغراسها نضرة ومزارعها يانعة خضرة . والثالثة زمن التحريق فتكون الارض فيه قحلة جدبة عليها غبرة . ولقد اصاب احد شعراء العرب اذ قال :

كأنَّ النيلَ ذو فهم ولبّ　　لما يبدو لعين الناس منهُ
فيأتي حين حاجتهم اليه　　ويمضي حين يستغنون عنهُ

وقال ابو الحسين المعروف بابن الوزير مشيراً الى ما ينجم عن الفيضان من الخيرات :

أرى ابداً كثيراً من قليلٍ　　وبدراً في الحقيقة من هلالِ
فلا تعجب فكلُّ خليج ماءٍ　　بمصر مسببٌ لخليجِ مالِ
زيادة إصبعٍ في كل يومٍ　　زيادة أذرعٍ في حسن حالِ

عيد النيل

وكانوا يحتفلون قديماً بعيد النيل احتفالاً عظيماً ، فاذا جاء الانقلاب الصيفي واتى الماء المقدس من اجباب اسوان الى جبل السلسله قامت القسوس المقيمة في هذا الجبل او الملك الحاكم او ابنه فيتقرب بثورٍ او بأوز ، ثم يُلقي في الماء قرطاساً مختوماً من البردى يشتمل على امرٍ فيه اطلاق الحرية له بالزيادة ، لكي يضمن لمصر الخير بفيضانٍ معتدل وكانوا يعتنون بهذا العيد رعايةً للرواية القديمة القائلة ان سعادة السنة او شقاءها موقوف على ذلك المهرجان ، فان حصل منهم في شأنه اهمالٌ او توانٍ ، رفض النيل الامر الصادر اليه ، واغرق الاراضي والجهات . وفي هذا الموسم كان الفلاحون يأتون بالزاد ويأكلون معاً اياماً متوالية ويشربون حتى يثملوا . ويستمرون على ذلك حتى يأتي يوم الموسم الكبير ، فتخرج حينئذ القسوس من المحراب وبينهم تمثال فيزفونه على الشاطئ بالالحان والاصوات المطربة والترتيل والمدائح وصدح الآلات الموسيقية فيقولون ما ملخصه :

« السلام عليك ايها النيل ، يامن ظهرت على هذه الارض وأتيت لاحياء مصر ، انت الذي يختفي مجيئك في الغياهب الى يوم الترتيل بقدومك أنت البحر المفيض بمياهك على البساتين التي اوجدتها الشمس لنا لتحيي جميع ما يكون في شرَق . انت صانع القمح وموجد الشعير ومطيل اجل المعابد . ان تعطلت اصابعك او اعتراك كساد ، اصبحت الالوف من الناس في فاقة . وان نقصت وقت نزولك من السماء ، أفنيت المعبودات والخلق ، وتكدرت الحيوانات وصارت الارض كباراً وصغاراً في عذاب . واذا كانت الحال على عكس ذلك واستجيب دعاء الناس تصيح الارض ابتهاجاً ، وينشرح كل ذي بطن ، ويهتز كل ظهر من الضحك . . يامجلب

الارزاق ومكثر المأكولات ، انت الذي يوجد عَلفَ الحيوانات ، ويعطى كلَّ ما لزم لقرابين المعبودات ، انت الذي يهتم بالقطرين فتمتلىء المخازن وتزداد خيرات الفقراء ، انت الذي يستجيب دعاءهم عند تقديم النذور فلا ينقصهم شيء . . . واذا دخلت كنت محاطاً بالاغاني ، واذا خرجت صاحبكَ التهليل ، واذا رقصوا فرحاً يوم ظهورك من غياهب مكمنك فما ذلك الا لكونِ عجزك اضمحلال لهم وفساد . . . ومتى تضرعوا اليك لينالوا الماء السنوي شوهد اهالي مصر الوسطى واهالي الوجه البحري مصطفين بعضهم بجانب بعض ، وكان كل امرىء حاملاً لعُدد صنعته ولا ينزوي احد وراء جاره . . . انت منبت الارزاق الحقيقية التي هي رغبة الناس . . . هذا هو كلام الالتماس الذي يجعلك مجيباً لدعائهم واذا تكرمتَ بلجج المحيط السماوي على الانسانية قدّم « نبرى » معبود الحب عندئذ قربانه وسجدت لك كل المعبودات قاطبة . ومتى عجنت يداك شيئا صار ذهباً ، او طوبة صارت فضةً . لا يوكل اللازورد لكن القمح افضل من الاحجار الكريمة . لقد شرعوا في الاغاني على العود ، واخذوا يرتلون لك بتصفيق مستمر لتبتهج من اجلك ذراري اولادك ، وليكثروا من اجلك تراتيل المدح ، كيف لا والنيل هو اله الثروة ، وهو الذي يحيي قلوب النساء الحبالى . ولو تأخر عن اعطاء الغذاء ، لزالت السعادة من المساكن ، ووقعت الارض في ضعف شديد . . . »

ولا يزال المصريون حتى اليوم يحتفلون احتفالاً عظيماً بما يسمونه «وفاء النيل» ولقد جرى الاحتفال هذا العام في ٢٥ اغسطس (آب) الماضي بالابهة المعتادة :